مجازفة

أدركت فاطمة مضمون رسالتي جيدا. لكنها أصرت على المجازفة والزواج بي. قالت لي بعد الزواج، وبعد أن سألتها:

- "ما الذي جعلك تقبلين"؟

- أجابت: لقد قلت لي ذات يوم: "إن الإنسان عليه يغامر في حياته ولو مرة واحدة حتى يدرك قيمة الأشياء، وحتى يغترف من علم الحياة ودروسها".

في الحقيقة، كلامي كان عابرا. ولم أتذكر حتى متى قلته. فمعظم المدرسين يقولون ما لا يفعلون، بل يقولون أشياء لم يفعلوها في حياتهم. ولما فاتهم الركب، فكروا في دفع طلابهم لفعل ما لم يفعلوا. وأحيانا يملؤون وقت الفراغ بنصائح وتوجيهات ما أنزل الله بها من سلطان.

مر على زواجنا أسبوع. في القرية، لا يقضي العروسان شهر العسل في مكان آخر. بل إن الشهر العسلي محصور في أسبوع. بعدها يخرج العروسان، بعد طقوس غريبة، إلى الحقول لأخذ جولة قصيرة. يلتقطون فيها، بمعية الأسرة، صورا تذكارية. يذهبون، في أحسن الأحوال، بأباريق القهوة الممزوجة بالحليب، أو بالتمر واللبن. في تلك الجولة القصيرة، فقط، بإمكان أصابع العروسين أن تتشابك وتتعانق أكفهما. فبعد ذلك لن يحدث ذلك أمام الملأ ولو في عالم الحلم. يُظهر العريسُ جاهه والحقول التي تمتلكها الأسرة.

في الحقيقة، هو يعطي لزوجته الخريطة الجغرافية التي يجب عليها احترامها أثناء خروجها، وعليها ألا تُخرجَ رِجليها عن المسارات التي حددها

سطرها. يريها الحقول، أيضا، لأن بقية حياتها ستكون في هذه الحفر الصغيرة التي تشبه رقعة الشطرنج؛ تأتي بالكلأ للبهائم، وتسقي الحرث، وتحصد المحاصيل.

هي تعلم أن حياة الدوار قاسية بما يكفي لتموت، فكل شيء فيها بقدر. لكنها تفضل أن يقال عنها: "إنها متزوجة، وأمٌ لكذا وكذا من الأطفال"، على أن يقال عنها: "إنها عانس لم تعرف رجلا قط".

خرجتُ مع فاطمة. كل شيء في أعيننا أخضر وينبض بالحياة. لم نشأ أن ينتهي الأسبوع. أعجبها الدوارُو أناسُه؛ خاصة التقاليد والعادات، وعفوية الناس. وسرعان ما أحبها الجميع. كانت امرأة بشوشة؛ تضحك في وجه الجميع ولا تبالي. وما إن أدخل عليها إلا وتنضبط انضباطا عجيبا. لا تستطيع أن تحذق في كثيرا. تفضل أن تقف وتسألني عن طلباتي. تحمر وجنتاها خجلا، وتنحني برأسها إلى الأرض. إنها تحبني وهذا يكفي كي نعيش في عتمة الدوار.

تذكرت يوم قالت لي: "أحبك".

خفت كثيرا ثم قلت: "لكني لا أقدر أن أعيش حياة الترف. الجهد يسير، والجيب فارغ، وجمالك شاسع وواسع".

قالت: "لا شروط لدي سوى أن يجمعنا سقف واحد، ويكون شعارنا خبز وشاي".

وكنت كلما أحسست بالهوان أستعير من مخيلتي هذا الحوار الجريء، فأشعر أني إنسان بقوة ألف حصان.

التقينا "أسي عزيز" في الحقول. حمل الحمار، كالعادة، ما لا طاقة له به، وأردفه بالكلام النابي. تقف فاطمة مذهولة، ويُخَيَّلُ إلي أنها تسب أسي عزيز في صمتها. صمتنا معا لبرهة، لم نستفق إلا بصوت الأطفال وهم يقولون: "هذا مكان جميل. لنلتقط صورة". سمعت فاطمة تقول: "ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به".

قالت نفسي المطمئنة: "أعلم أن فاطمة ستتأقلم مع ثقافة الدوار. فكثيرات هن اللاتي جئن من المدينة، محملات بثقافة التفتح والتحرر والرفق بالحيوان، لكن سرعان ما خمد كل شيء، وعُوض بثقافة الحشمة والصمت، وطأطأة الرأس، والقسوة على الحيوان، ثم أحببن عتمة الدوار".